نسأل: الى اين وصلت الحركة القومية العربية اليوم؟

من المعلوم ان الحركات الثلاث جسدت الوجود النظري للحركة القومية العربية خلال مرحلة الخمسينات والستينات. الا ان تطور الاحداث في الساحة العربية، والتفاعلات التي عرفتها الحركة النضالية العربية، والنكسات التي منيت بها، غيرت الكثير من التصورات الفكرية والمواقف الايديولوجية؛ كما انها اثرت بدورها في التجسيدات العملية للحركة القومية العربية. فالناصرية، كحركة وتيار قومي استقطب افئدة الجماهير العربية، انتهت بنهاية الراحل عبدالناصر، وتحولت الى مجرد تيارات صغيرة مبعثرة هنا، وهناك، ومحصورة ضمن مواقع اقليمية، وتفقد، في الغالب، اشعاعها القومي وتأثيرها الفكري خارج اطار الحركة او الحزب المعبر عنها (حركة «المرابطون» في لبنان، حزب التجمع الوحدوي في مصر). وحزب البعث تحول الى انظمة مرتبطة بسياسات ومفاهيم تستمد تصوراتها ومواقفها من ضرورات السلطة والحكم، اكثر مما تنهل من معين فكري قومي، وبالتالي نأت عن ان تكون حزب الجماهير، ولم يعد من الممكن التحدث عن حزب البعث العربي الاشتراكي بمعزل عن النظامين الحاكمين في سوريا والعراق.

ومع ان هذه تطرح نفسها كناطقة باسم القومية العربية والوحدة العربية، الا ان مقاييس محاكمتها وتصنيفها تخضع لنفس ما تخضع له بقية الانظمة العربية. وحركة القوميين العرب انتهت، عملياً، من الوجود، وتحولت الى تنظيمات يسارية في غالبيتها، لا تمت بصلة الى الحركة الام وايديولوجيتها القومية الاولى.

الا ان حالة الجزر الذي عرفته الحركة القومية العربية لا يعني نهايتها، على الرغم من الاصوات العديدة التي نعت القومية العربية والوحدة العربية، وشككت في وجودها، واقامت لها، في كل نكسة قومية، حفل تأبين[٦٦]، حيث استمر الفكر القومي الوحدوي يتفاعل على الساحة العربية، فكراً وانتماء، ولكن ضمن مضامين جديدة، واشكال تعبيرية جديدة، تجاوزت، غالباً، الممارسات الارتجالية، والتنظيرات المتشنجة للمرحلة السابقة.

كان تعامل القوميين العرب مع قضية الوحدة يتسم، غالباً، بالعشوائية والتوتر، ولم تكن الممارسة بنفس ثورية وعقلانية الهدف، او على مستوى المبادئ التي رفعوها، وغلبت الذاتية وتقديس الذات على عقلانية الهدف وقدسية الفكرة. ومنذ نكسة الانفصال، في العام ١٩٦١، يمكن القول ان مرحلة التراجع القومي بدأت. وكان الانفصال المحك العملي لاثبات مدى تمسك القوميين العرب بالهدف الوحدوي، ولكنهم فشلوا في الاختبار، وكان الشك والحذر المتبادل بين القوميين العرب هو سيد الموقف. وبدلاً من ان يتجه كل من البعث والناصريين الى البحث في الظروف الموضوعية والخصوصيات الذاتية والعوامل العميقة الكامنة وراء حدث الانفصال، باعتبار الانفصال ظاهرة لها مقدماتها واسبابها؛ حمّل كل طرف الطرف الآخر مسؤولية ما حدث، وفتح كل طرف ابواق دعايته ضد الطرف الآخر، وانقسم المعسكر الوحدوي الى معسكرين، وهو الامر الذي نعتبره من اهم الاسباب في نكسة الحركة القومية العربية المعاصرة.

ولم يستوعب البعض من القوميين العرب ضخامة المهمة الملقاة على عاتق من يريد حمل لواء القومية العربية، ولم يمتلك قوة الايمان بالقومية العربية، باعتبارها تعبيراً عن الذات العربية، وتعبيراً عن حقيقة تاريخية موضوعية، تكالبت عليها قوى الاستعمار والانفصال